

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّة عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ

لِقَتْلِ الْيُسَيْرِ بْنِ رَزَامٍ الْيَهُودِي

١ - طبيعة الأحداث ومهمة السرية:

يقول د/ الغضبان: «طبيعة الأحداث تقتضي أن يتم هذا السير إلى خير، فاليهود قد فجعوا بمقتل زعيمهم أبي رافع، واختاروا زعيماً جديداً ليثأر لهم من محمد ﷺ وأصحابه، وغطفان إنما تتحرك بإيحاء مستمر من اليهود، فهذان العدوان المحيطان بالمدينة، لابد من مواجهتهما وكسر شوكتهما، وإدخال الرعب والهبة في قلوبهم؛ ولذلك ما إن انتهت في شعبان سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى أم قرفة وبني فزارة، حتى تحركت في مستهل رمضان سرية الثلاثة تتحسس أخبار يهود خير وتحركاتهم المريبة، وثبت للقائد الأعظم ﷺ أن التخطيط الخبيث الماكراً لم ينته، وأن مقتل أبي رافع لم ينه حرب يهود خير وحقدهم، إنما أججها اشتعالاً، فهم يسعون في الأرض فساداً كما وصفهم الله تعالى، ويشعلون نار الحرب كلما أتبع لهم ذلك». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٩].

ويقول أ/ الشامي: «لم تكن مهمة هذه السرية - فيما يبدو من النصوص التي أوردتها كتب السيرة - هي قتل أسير، حيث خرج معهم وكل فريق قد أمن الآخر، ولكن مبادرته بالغدر هي التي أودت بحياته وحياة من كان معه، ولعل الرسول ﷺ كان يريد إبرام معاهدة معه، تكون نهاية لتحريض اليهود ضده، ولكن ذلك لم يتم بسبب ما حدث». [من معين السيرة للشامي ٣٥٥].

٢ - السرية الأنصارية:

يقول د/ الغضبان: «وأن تختار السرية من الأنصار لمواجهة اليهود فهذا أمر طبيعي، فالأنصار هم أدرى الناس بهم حرباً وسلماً، وهم أكثر الناس دربة على فن التعامل معهم، ومن أجل هذا كان أمير السرية عبد الله بن رواحة ﷺ أحد أعضاء الحكومة الإسلامية، أي أحد النقباء الاثني عشر، فهو سيد قومه بني الحارث بن الخزرج الذين يمثلون الخيرية الثالثة في قبائل الأنصار بعد بني النجار وبني الأشهل، وكان معه البطلان العظميان اللذان ساهما في اغتيال قادة اليهود وهما عبد الله بن أنيس، وعبد الله بن عتيك، فهما خيرا حرب العصابات في مدرسة النبوة، فابن عتيك وابن أنيس هما اللذان نفذوا عملية مقتل أبي رافع، وعند أحدهم خبرة بلهجة اليهود حيث يرطن بلغتهم». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩٠].

٣ - الحوار والمباحثات السلمية:

يقول د/ الغضبان: «كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، حين ابتعث السرية الثلاثين إلى أسير بن رزام ملك اليهود، وعقد هدنة مؤقتة معهم من خلال تنويع أسير

عليهم، وإيجاد نوع من التحالف معهم؛ ولذلك كان دور عبد الله بن رواحة ۞ في هذا الاتجاه، ونجحت المباحثات، وجاء أسير وثلاثون معه إلى المدينة ليتم عقد المعاهدة فيها بإقرار رسول الله ۞، فشوكة خير قوية وقد تجمع يهود الجزيرة العربية جميعاً فيها، وحصونها من القوة والمنعة ما يجعلها تقف أمام أي هجوم شهوياً طوالياً، وإذا كان رسول الله ۞ قد اعترف بالوجود اليهودي في المدينة وتعايش معه عندما وفي بعهد، وأنهاء عندما غدر، فلا غرو أن يعترف به خارج المدينة، ضمن خيط أمل ضعيف هو عودة أهل الكتاب إلى رشد، وإمكانية استئناف الحوار والمباحثات السلمية لعلها تجلو القلوب من الحقد، وتفتح مجال الدعوة إلى الله من جديد.

وكانت تجربة دومة الجندل مع النصاري تجربة فائقة النجاح آنذاك فيمكن أن تتكرر هذه التجربة مع اليهود ومع زعيمهم الجديد أسير بن رزام؛ ومن أجل ذلك دفع بقيادة الدعوة من الرعيل الأول ليحققوا هذا الهدف». [التربية القيادية للغضبان ١٩٠/٤].

٤ - تأكيد على الحقد اليهودي على المسلمين:

يقول د/ الغضبان: «غير أن الحقد اليهودي الذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين هو الذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطة كلها، ورسول الله ۞ سيد الخلق لا ينظر للقضية من زاوية واحدة فقط، إنما يضع كل الاحتمالات الممكنة في هذه القضية.

ومن أول وأهم هذه الاحتمالات هو عملية الغدر اليهودي والنكس الذي هو جزء أساسي من تفكيرهم وتكوينهم، وهذا هو سر وجود البطلين العظميين معها وغيرهما من مدرسة المدينة؛ ليحققوا الهدف في المواجهة إن نكث القوم العهد، وصح ما توقعه ۞، من أن القوم جُبلوا على الغدر، ولا يمكن لهم أن يتعاملوا تعامل الشرفاء مع الآخرين.

ولم يكن ركوب عبد الله بن أنيس ۞ مع أسير بن رزام عَرَضاً، إنما هو ركوب مخطط لهذا البطل الذي لا يعرف قلبه الخوف عندما حدثنا عن نفسه، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا فَرَّقَتْ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ.

[المغازي للواقدي ٥٣٢/٢].

إنه البطل الذي جُرَّب قبل الآن، وجاء برأس سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي شيطانهم المارد الذي كان يجمع الجموع لغزو المدينة، وهو البطل الذي نظر رسول الله ۞ إلى سيفه في مقتل أبي رافع، فقال: «هَذَا قَتْلُهُ أَرَى فِيهِ أَثَرُ الطَّعَامِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢٧٥/٢].

ولذلك من حدة يقظته، ما أن رأى بواذر الغدر تبرز من أسير حتى بيَّت قتله قبل أن ينفذ غدرته، فنزل يقوده به بعيره حتى انفرده به وانقض عليه انقضاض الصاعقة بسيفه البتار وأطاح معظم فخذه وساقه وقطع مؤخرة الرجل.

ولم يكن أسير بالرجل العادي، فقد كان أسير رجلاً شجاعاً كما وُصف، فدافع عن ذاته بالمرحش الذي في يده وشج رأس ابن أنيس ﷺ شجعة منكراً بلغت العظم في أم رأسه، ولكن هذا لم يحل دون قتل ابن رزام.

وكانت خطة مُعدَّة، فمع مقتل أسير الذي أراد الغدر، فلا بد من مقتل أصحابه وعددهم كعدد السرية المسلمة، وإذا كان شجعان اليهود رياحاً، فقد لاقوا أعاصير حولهم، فالكتيبة مدربة أحسن تدريب، ومعدة أعظم إعداد بحيث إن الثلاثين من المسلمين قتلوا الثلاثين من اليهود، إلا فرداً واحداً أعجزهم هرباً، وفرَّ إلى قومه يحدّثهم عما لاقوه من جنّ المسلمين، بعد أن كانوا يمتنون قومهم برؤوسهم». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩٠-١٩١].

٥ - التجارب الحاسمة القاصمة:

يقول د/ الغضبان: «وهكذا كانت القضية في الساحة العربية، مع هذا الجيش المؤمن فيما حلف أو هدنة تحفظ الأرواح، والأموال، وتحقيق الأمن، والعافية، وإما حرب ضروس فتفتك بالبلغة والطواغيت، وتبث الرعب والرهبة في قلوبهم وحيث لم تكن تجربة دومة الجندل، أو تجربة بني قريظة قبل غدرهم بالمدينة، أو تجربة بني النضير أو بني قينقاع، وحيث اختار العدو الحرب، فلتكن التجارب الحاسمة القاصمة، تجربة أبي رافع، وتجربة ابن الأشرف، وتجربة أم قرفة، وختام هذه التجارب بأسير بن رزام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة].

إن البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً وشديداً، فلن تحسم المواجهة مع العدو، وسيجعل الحرب تفني كل شيء، وتأكل كل شيء، فلا بد من بث الرهبة والرعب في قلب العدو، ولا بد من الشدة معه حين لا يجدي الحوار أو المناقشة، ولا بد من الغلظة التي تشعر العدو أن من يقاومه لا يخشى في الله لومة لائم».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩١].

٦ - جواز الفتك بأهل الحرب:

وفيها جواز تصفية غير الموالين للدولة الإسلامية الناشئة وقطع الطريق على أولئك الذين تسول لهم أنفسهم من إقامة التحالفات للقضاء على المسلمين ومنعهم من نشر دعوة الإسلام. وهذا ما دلت عليه السرية وما قام به أفرادها من أعمال عسكرية ضد المتأمرين على أمن دولتهم.

[فقه السرايا للعيسوي ١٦٣].

يقول الإمام ابن القيم: «إِنَّ الْإِمَامَ إِذَا سَمِعَ يَقْصِدُ عَدُوَّهُ وَفِي جَيْشِهِ قُوَّةٌ وَمَنْعَةٌ لَا يَقَعْدُ يَسْطَرُّهُمْ بَلْ يَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٤٧٩].

٧ - نتائج مقتل ابن رزام:

وبمقتل ابن رزام تخلص المسلمون من يهودي طاغية أراد أن يغزوهم في دارهم وأظهر الغدر للمسلمين، فجنى على نفسه بغدره وظلمه. [السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٠٦].

٨ - دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من سرية محمد بن مسلمة ؓ لقتل ابن الأشرف ٣هـ وسرية ابن أبيس ؓ لقتل خالد الهذلي ٤هـ، وسرية الضمري ؓ لقتل أبي سفيان بعد بئر معونة، وسرية عبد الله بن عتيك ؓ لقتل ابن أبي الحقيق ٥هـ.